

انطلاقاً من تجربتي المتواضعة كأخصائية نفسية عيادية ممارسة في مدرسة صغار الصم، وكباحثة في مجال الصدمة النفسية والجلد، وبالاطلاع على التراث السيكولوجي في هذا المجال توصلت إلى عدة ملاحظات أوردتها كالاتي :

- تعرض بعض الأطفال الصم لسوء المعاملة وتمكنهم من التغلب على وضعيتهم .

- فقر الدراسات - على المستوى العالمي وانعدامها على المستوى الوطني - التي تناولت الصم و سوء المعاملة من جهة، والجلد من جهة أخرى، إذ إن أغلب الباحثين المهتمين بالمعاقين سمعياً قد اهتموا اهتماماً كبيراً بالخصائص السيكولوجية والانفعالية، ووصف البناء النفسي للأشخاص الصم، وتناولوا العوامل التي تلعب دوراً في ظهور هذه الخصائص، أما المهتمين بالصدمة النفسية والجلد، فقد أثروا هذا الميدان بالعديد من الدراسات التي لا يسعنا المجال لذكرها هنا، والتي تناولت الصدمات النفسية الناتجة عن الكوارث الطبيعية، أو تلك الناجمة عن الاعتداءات الجنسية، أو عن الفقر، أو مرض أحد الوالدين أو كليهما، أو سوء المعاملة عند الأطفال العاديين، أو .. .

وهنا تجدر بنا الإشارة للدراسة التي أنجزت سنة (2004) Christiane Grimard et Colette Dubuisson بكندا على عينة من الراشدين الصم الذين تمكنوا من تخطي تجاربهم ومواصلة نموهم، وقد توصلنا انطلاقاً من تحليل قصص حياتهم إلى أن الدفء العائلي، والقدرة على السرد، ونظرة المجتمع، قد ساهموا إلى حد كبير في سند الجلد عندهم .

فباتخاذ هذه الدراسة كدراسة سابقة في مجتمع متفتح وواخ، ويتوفر على فرص أكبر للتكفل بالمعاقين سمعياً كالمجتمع الكندي، واتباع المنهجية نفسها حاولت تسليط الضوء على قصة حياة شاب أصم تعرض لسوء المعاملة في عائلته، ولأصناف من الإهمال والرفض والمعاناة الاجتماعية في طفولته، ومع هذا استطاع بناء حياته بطريقة إيجابية .

فعلى العكس مما كان متوقفاً لزم من ليس ببعيد، أن كل متعرض لسوء المعاملة هو شخص محكوم عليه بالضياح والانحراف، أظهرت الدراسات حول الجلد أن هناك من الأطفال الذين تعرضوا لشتى أصناف المآسي من نجاح في بناء حياة طبيعية في كافة النواحي الأكاديمية والاجتماعية .. .

ويعود الفضل لـ Emmy Werner في ميلاد كلمة الجلد انطلاقاً من دراستها الطولية والتي دامت ثلاثين سنة على 545 700 طفل في بداية الدراسة بأرخبيل هاواي، حيث تنبأت لـ 200 طفل كانوا يبلغون العامين وكانوا عرضة للوبس والشقاء والأمراض تنبأت لهم بمستقبل أسود ومنحرف . وبعد مرور ثلاثين سنة لاحظت أن 70 من هؤلاء الأطفال أصبحوا راشدين 30 بالمائة منهم يعرفون القراءة والكتابة وتعلموا مهنة وكونوا عائلات .

كما كان لمساهمات الطبيب العقلي والمحلل النفسي الفرنسي Boris Cyrulnik وقع كبير في انتشار وتطور مفهوم الجلد في الدول الفرانكوفونية، وخاصة من خلال كتابه Un merveilleux malheur 1999 أين وصف ان على الضربات الموجعة التي تعرضوا لها و نجحوا في إيجاد معنى لحياتهم .

:

يبدو من الصعب وضع تعريف جامع للجلد، إذ يحتوي التراث العلمي المتخصص على تعريفات مختلفة لهذا المفهوم .  
Résilience وهي كلمة فرنسية لاتينية الأصل من résilientia وهي مستعملة عادة في علم فيزياء المواد، لتعني مقاومة المادة للصدمة القوية، وقدرة بنية ما على امتصاص الطاقة الحركية للوسط دون أن تتحطم (Anaut, 2007, p.34)  
المعادن، يعني الجلد خاصية المواد التي تتمتع باللدانة والرشاشة في ذات الوقت والتي تظهر قدرة على استعادة حالتها البدائية بعد

حسب القاموس التاريخي للغة الفرنسية (in Anaut, 2007, p . 35) résilier (in Anaut, 2007, p . 35) gre يعني حركة نحو salire résilience الوثب إلى الخلف، ومن هنا كانت الترجمة الحرفية للغة العربية "الرجوعية" حسب سهيل إدريس (2007) " حسب المركز الإسرائيلي لعلاج الصدمات النفسية، أو " " 2007

ذلك من دينامية وخاصة إنسانية .

كما يعني الجلد على حد تعبير Cyrulnik, 2001 فن الإبحار في السيول الغزيرة، أي فن التكيف في الوضعيات المأساوية بتطويع العوامل الداخلية والخارجية . إنه القدرة على النجاح، العيش والتطور إيجابياً على نحو مقبول اجتماعياً، بالرغم من الضغوط أو المحن التي تحمل في طياتها خطراً حقيقياً لمخرج سلبي .

:

Cyrulnik لكي يتسنى لنا الحديث عن الجلد يجب أن نسيقه صدمة أو وضعيات صعبة متواصلة ومزمنة، مركزاً في ذلك Anna FREUD in M.BEZIAT , 2008، التي بينت أن الصدمة تنتج عن حدثين صادمين :

- الأول هو الجرح المباشر في الحالة الواقعية ( .. ) .

- الثاني هو تصور هذا الجرح (تمثيل الواقع في نظر الآخرين) .

لمساعدة الأفراد على التخلص من الصدمة يجب أن نضمن أن الحدث الثاني لن يكون بالشفقة و إنما بالتفهم . ويتعلق هذا التصور بالفرد في حد ذاته، بكلام الأقارب حوله وبحديث المجتمع والثقافة التي ينتمي إليها .

تضم كلمة سوء المعاملة مفهومي : مفهوم التفريط أو الإهمال، ويقصد به شكل من المعاملة الرديئة المميزة بالانقص المزمن في الصحة، الحماية، التربية، التعليم، الحاجات العاطفية، إذ تهدف هذه المعاملة النمو السليم للطفل . ومفهوم الإفراط أو الإسراف ويعني أعمال إرادية أو لا إرادية من الاعتداءات الجسدية أو النفسية على طفل معرضة بذلك حياته للخطر.

الطفل الأصم كغيره من الأطفال ليس في منأى عن وضعيات سوء المعاملة فغالبا حيثما كانت الإعاقة يكون هناك ميل للتضخيم والمبالغة، ويكمن الخطر إما في الإفراط (إفراط في الحب، إفراط في الخوف، إفراط في الاهتمام) أو في التفريط (الإهمال، الترك (.. (N .CLERBAUT , V. PONCELET, V. VAN CUTSEM , 2007, p . 08) .

:

إن العوامل التي تحفز الجلد ليست بالجديدة لأنها نفس العوامل التي تسمح بنمو شخصية متزنة عند كل الأفراد، الحب، الصداقة، معنى الحياة، تقدير الذات والإحساس بالقدرة على التحكم في وجوده هي مشاعر تؤدي للسرور والارتياح في حياة الفرد سواء عاش خطورتها العلاقات الوجدانية والاجتماعية . (FISHER, sans année) . إن الحرمان المبكر يخلق قابلية للجرح مؤقتة يمكن أن ترممها أو أن تزيد في

الجانب الميداني :

معايير اختيار العينة :

1 .

2 .

3 غياب الأعراض النفسية، الجسدية و السلوكية .

4 - متابعة الدراسة و التفوق فيها .

حجم العينة :

تمثلت عينة الدراسة في حالة واحدة، وهذا لا يعني أن هاته هي الحالة الوحيدة التي تعاني من إعاقة سمعية وتعرضت لسوء المعاملة وتمكنت من التغلب على هذه الوضعية، ولكن لصعوبة الحصول على تاريخ حياة بقية الحالات .

:

تمت الدراسة بمدرسة صغار الصم لولاية سطيف خلال شهر جانفي 2009 .

وسائل جمع البيانات :

- المقابلة نصف الموجهة مع الحالة.

- المقابلة نصف الموجهة مع المعلمة المختصة التي كان لها الفضل الكبير في نجاح ( )

- المقابلة المفتوحة مع الأخصائيات البيداغوجية والأرطوفونية .

- ملف الحالة وبطاقة التكفل والمتابعة النفسية للحالة .

:

( ) شاب يبلغ من العمر 19 سنة، يعاني من صمم خلقي إرسالي متوسط (40 ديسيبل)، قد يكون هذا الصمم ناتجا عن ا  
الدموية الموجودة بين والديه، بالإضافة إلى أن الوالد كان يبلغ 67 سنة، كما عانت هذه الأخيرة من  
( ) في أسرة فقيرة جدا مكونة من سبعة إخوة وأختين، حيث أنه كان أصغرهم سنا وهو الأصم  
الوحيد في

( ) من الرفض والتهميش من قبل أسرته والجيران إلى درجة أنهم كانوا لا ينادونه باسمه، بل كانوا ينادونه " " و  
ويستهزئون به . بالإضافة لهذا لم تهتم عائلته بتمدرسه عند بلوغه السن القانونية للتمدرس، بل اعتبروه دائما ولدا عديم النفع، إلا في  
ثامنة حيث سجلوه في مدرسة صغار الصم وهذا لغرض واحد وهو التخلص منه و إخفاؤه في المدرسة، إذ إنه في تلك الفترة  
أبدى نوعا من العدوانية والمشاعبة كتعبير عن رفضه لتلك الوضعية . ( )  
نفسه، تبدو عليه علامات الفقر المدقع والحزن، كما كان لا يخرج أي صوت، وفي هذا يقول : "فرق كبير بين كي دخلت للمدرسة  
وضك، كنت عقون ما نهدرش مره" . بالرغم من أن درجة صممه ليست بالعميقة وهذا ما دفع بالمعلمة إلى الشك في درجة فقدانه  
السمع، فقامت بالاتصال بالأخصائية الأروطوفونية لإعادة قياس درجة صممه فتوصلا إلى أن صممه متوسط وليس عميقا، وهذا ما  
جعله يلقي العناية والاهتمام من طرف معلمة الفصل والأخصائيات النفسانيات اللاتي تفهمن وضعه وأحطنه بما يحتاجه من رعاية  
نفسية، تربوية، وأروطوفونية، و علموه كيف يستغل بقاياه السمعية وفرضت عليه معلمته استعمال اللغة المنطوقة معها، و مع بقية  
أعضاء الفريق التقني وكل العاملين بالمدرسة. "المعلمة هي لي عوننتي بزاف، بالشوي بالشوي بديت ننطق وكنت نشوف فمها كي  
تعود تهدر" . : "كان في كل مرة يستعمل الإشارة باش يهدر معايا نقولو هبط يدك أهدر معايا ياك تسمع  
ماشي كيفهم" . وقالت الأخصائية النفسية "المعلمة كانت تبعثر ليا وتؤكد عليه أن يتكلم معي"، فعزز هذا من ثقته في ذاته فبدأت بوادر  
التحسن تظهر عليه على كافة الأصعدة الاجتماعية، إذ اكتسب لغة الإشارة وتمكن من التكلم مع بعض الصعوبات  
والاضطرابات النطقية والكلامية التي ما لبثت أن زالت بالنصح الأروطوفوني، وهذا ما ساعده على توسيع دائرة اتصاله بين مختلف  
الزملاء والمعلمين وتمكن كذلك من تحسين مستواه الدراسي، إذ صار يتحدث ويقرأ وكأنه شخص عادي فأصبح مفخرة معلمته التي  
" il était ma fierté رة سمعو المدير من les couloirs يقرأ في كتاب القراءة قال لي شكون هذا لي  
راه يقرأ أواه هذا بلاصتو مشي هنا" .

أهم شيء حققه ( ) هو تغيير نظرة أسرته له، فبعد التطور الملحوظ من قبل الجميع أصبحت أسرته أكثر اهتماما به ووطدت علاقاتها  
بالمدرسة، فكانت أمه وكذلك أخوه، يأتيان ليسألا عن حاله، بل تعدى الأمر ذلك لدرجة حضور أخته حصص الدرس مع معلمته لكي  
تتمكن من مساعدته في المنزل .

:

. ( )

- الإعاقة السمعية .

- الرعاية و الاهتمام في المدرسة .

- تحسن في العلاقات الاجتماعية .

التحليل :

لا شك أن حاسة السمع نعمة عظيمة من نعم المولى سبحانه وتعالى على بني آدم وقد بين لنا القرآن الكريم أهمية هذه النعمة في أكثر  
من موضع، بل وجعلها مقرونة بحاسة البصر وجعلها سابقة عليه، ((والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع  
(( الآية 78 ) ، وتتجلى أهمية هذه الحاسة في أنها تساعد الفرد على سماع كافة  
المؤثرات التي تقع في محيطه من كلام، تلاوة وذكر، خطاب، شعر، أناشيد، أو أصوات العصافير .. أو غير ذلك، والتأثر بها وجدانيا  
وعاطفيا وفكريا، كما يعتمد عليها بشكل أساسي في الاتصال والتفاهم مع الآخرين من الجنس البشري، كما تمكنه من التعبير عن  
احتياجاته و رغباته في إشباعها .

وأمام هذه الوظائف العظيمة التي تؤديها حاسة السمع في حياة الفرد، فإن للحرمان منها أثر بالغ على مختلف جوانب الحياة خاصة  
على الجانب الاجتماعي والاتصال والتفاعل، فكيف هو الأمر إذا اقترن هذا الفقدان بالفقر ويسوء المعاملة من طرف أقرب الناس  
الأسرة والجيران ؟ . إنها ولا شك تمثل حدثا صادما ووضعية اجتماعية مزرية، وللتغلب على هذه الوضعية لجأ ( ) لعوامل داخلية

وخارجية ساعدته لمواصلته حياته بطريقة إيجابية وتخطي المحن التي مر بها، و تمثلت هذه العوامل فيما يلي :

1 :

يتضح لنا أن الطفل عانى ربما من إخفاق في العلاقات المبكرة، ومن رفض العائلة والمحيط ومن التفريط بسبب العجز البدني، ولم يعرف الطفل الحنان إلا في سن الثامنة بالقرب من معلمته والأخصائيات النفسانيات . ” ( لأنها مكان ثابت مفعم بالحيوية والحب، حفزت لديه نسج روابط آمنة مع عدة بدائل، المعلمة بالدرجة الأولى التي قالت في بداية المقابلة ” حبيبت ( ) وتعلقت بيه ونشفي مليح كيفاش دخل لـ école أو كيفاش ولي” . المعلمة من جهة والأخصائيات النفسانيات والزملاء وشلة الرفاق من جهة أخرى . أي أنه وجد المكان الذي منحه قاعدة قوية لتحمل الصعاب الاستقرار والأمن والشروط اللازمة لتعلم وسيلة تمكنه من التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الدفينة وإعطائها معنى إيجابيا، من بينها أنه ليس هو الوحيد الذي فقد سمعه وعانى من مشاعر التهميش والرفض، بل هناك من حالتهم أسوء من حالته . فدرجة فقدانه السمع وليست عميقة كما هو الحال عند أغلب تلاميذ المدرسة .

2 :

ويشكل هذا العنصر سندا هاما للجلد، إذ إنه يسمح له بالتعبير عن الأحداث، فكما يقول Cyrulnik أن التكلم عن الحدث يسمح بالابتعاد عنه، فلحديث القدرة على ترميم الجرح أو إعادة الجرح من جديد . كما تفيد ( Odile BOURGUIGNON 2006 . 116 ) أن السرد يمكن أن يخفف تدريجيا من الصدمة، وأن يرممها باستعمال تمثيلات تضعها في عالم رمزي .

3 - توسيع دائرة الاتصال :

استعمال البقايا السمعية واستعمال اللغة المنطوقة سمحت لـ ( ) بالاتصال بالأشخاص العاديين، والتعبير عن ألامه وأماله، كما أن اكتسابه للغة الإشارة يتيح له الفرصة للاتصال بالزملاء في المدرسة وكذا الاتصال عن طريق الأنترنت ببعض الأصدقاء الصم في ولايات متعددة الذين تعرف عليهم من خلال تنقلاته ضمن فريق كرة القدم التابع للمدرسة وأيضا مع شباب صم في فرنسا تعرف عليهم بمحض الصدفة، ”لي يقرأوا في المدرسة تاينا أكل صحابي وعندي ثاني صحابي يسمعون نورمال ونروح الأربعاء والخميس cyberنهدر بالإشارات مع صحابي لي لعبت كونظرهم في بويرة، الحراش، الأغواط، وعندي صحابي تعرفت عليهم زهر من فرنسا، بصح الإشارات تاوعهم متبدلين شوية على تاوعنا” .

4 :

( ) في النطق وتفوق في دراسته واحتل المراتب الأولى في القسم، حبه لكرة القدم حتى النخاع، وولوعه بقراءة جريدة الهداف، وكذا كونه عضوا نشيطا وفعالا في فريق كرة القدم التابع للمدرسة لدليل على قيامه بأعمال ذات قيمة اجتماعية أي التسامي .

5 :

غيرت الأسرة من وجهة نظرها واعتبرت ( ) طفلا كباقي الأطفال له الحق في التعلم والمساعدة والعناية، فمنحته الاهتمام والرعاية وأبدته في مراحل التعليم، وهذا ما سمح له بتمتين ثقته في ذاته أكثر فأكثر والتعلق بأسرته . ”قالي خويا لي زايد في 1986 كنت عقون وضك هدرت ؟” . ”لجبران قعدو حابرين فيا” .

ويمكن تلخيص كل هذا حسب نموذج Casita :

:

( ) يدرس السنة الثالثة متوسط، لم يرسب في أي سنة دراسية، متفوق في دراسته، تحصل على معدل 15,89 السابق، متزن نفسيا، ومتفتح، يستعمل لغة الإشارة صال وللتعبير عما يشاء، كما أنه بارع في قراءة الشفاه، وهذا ما جعل الأساتذة يستعينون به لشرح بعض المفاهيم لزملائه . له علاقات وثيقة بالفريق العامل بالمدرسة وزملائه، كما أنه عنصر فعال في فريق كرة القدم التابع للمدرسة . بالإضافة لهذا فـ ( ) يعمل كل يوم جمعة في السوق الأسبوعية للسيارات، ويعمل في فترات العطل في سوق الجملة، إذ يقول: ”نتمنى نكمل قرابتي ونولي معلم بصح ضك نخدم أي خدمة باش نعاون خويا في المصروف تاع .”